

الإسلامية ، وله أثر في ضميرها لم يفارقها طوال حياتها ،
وربما كان له أثر في موقفها من تاريخ الإسلام ترتبط به
ذبوله على نحو من الأنحاء ، ولولا ذلك كله لما استحق من
المؤرخ كبير التفات .

بعد النبي

عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستاً وأربعين سنة ،
وتوفيت وهي في نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة
وقد توفي النبي عليه السلام في بيته وفي يوم زيارتها ،
ودفن بالمكان الذي كان ينام فيه
وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه
مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل وفاته
حتى استأذنه أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق
المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطيرهم نذير
الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما
روع وتعاضمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها
ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغي لها أن تستقبل به هذا
الوداع الذي لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم

المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقى ما لقى النبي من سداد التجميل ووقار الحزن في الملمات . . . إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقدته وإذا هي امرأة واهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : وقالت : « . . . وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق . وقبض بين سحرى ونحرى ودولتى ولم أظلم أحداً . فن سفهى وحدائة سنى أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى »

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ من تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود في بلده وبين أهله . وكان أهل مكة يسوون قاع القبر وأهل المدينة يقوسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يضرح كأهل مكة والآخر يضرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبى طلحة به ولم يعد صاحب أبى عبيدة . فحضر اللحد على طريقة أهل المدينة وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما : « ما علمنا

بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من
جوف الليل »

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم تلك البقعة الخالدة
ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، ولما كانت
تزور .

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره وهي لا تحسب
أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره
زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات فكانت
تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت
بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب وهي تزور أولئك
الأصدقاء المتجاوزين ، كأنهم ب قيد الحياة .

وكانت في أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته
عليه السلام فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين وعاشت في
ذكره زهاء خمسين سنة . وحسبنا من شعور الناس بجلال
تلك الذكرى في نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطرة عن السيدة
عائشة تجيز التفكير في حياة زوجية أخرى كأنه خاطر حرمة
قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلاً عن الحكم
بتحريمه في سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة في خلال تلك السنين
الطوال من لدن فارقتها زوجها العظيم وهي تجاوز العشرين

إلى أن فارقت الدنيا وهي تقارب السبعين . لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هي المرجع الأول فيما حفظ عندها من آي القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمة ! ومنهم من هي في سن بناته الصغريات ، ويأله من دعاء محبب إلى الأسماع .

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوى إلى الصلاة والتسبيح في جوار الضريح . أو تعمل في مهنة البيت ذلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التي ينبغى أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي عليه السلام أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغير أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين وتركز منه ومن أصحابه إلى سند ركين ،

وكان الخليفة أباهما وهو أول من يدعوها بأمر المؤمنين .
وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو
تسكن ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع ،
وكان عمر أهاب خليفة عرفه الإسلام وأحب خليفة إلى عائشة
رضي الله عنها . سرت صداقة الأيوين أبي بكر وعمر إلى بينهما
فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان
كلما وقع الحصاد في بيت النبي عليه السلام وحفظت له أجمل
الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له :
إن الله هو الذي زوجها وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها
عليك . وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعى لها المكانة
الأولى بين المسلمين ، ونخص بيت النبي بالحصّة العليا من
الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان - عهد أبي بكر وعمر - وليس في الحياة
الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى
نوازع السياسة ، وما تعارض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .
ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة
العامة بعد موت النبي ، وهو الموقف الذي تحولت بها الأحوال
إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير
سابقة له في سيرتها الأولى .

في السياسة العامة

قلنا في الفصل السابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التي انقضت بعد وفاة النبي عليه السلام . « لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ »
فأما حدة نفسها فمن السهل بعد الإمامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذي يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التي نشط بها المزاج العصبي ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهي أخرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلا في بيتها ، وهي أرفع بيئة بين قومها .

نشأت عزيزة في آله وذويها ، عزيزة في بيت أبيها ، عزيزة في أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لو التفت لها ولالة الأمر كما ينبغي في حينها

لسلمت السياسة العامة في ذلك الحين من جرائم الخطأ الذي وقعت فيه .

ولا بدع في تقرير تلك الحقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولاً مرعية في سياسة أقطابها ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهى أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تظل بالمكان الذي يستفاد فيه من عملها وعلمها وأن تعرف لها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامى كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ، في معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملاً خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية .

كان هذا واجباً لها وجوب الحق وجوب المصلحة وجوب السياسة .

وكان هذا الواجب « أصلاً مرعياً » من أصول السياسة

العليا أيام أبي بكر وعمر سواء قصدوا إليه أو ذهبوا فيه مذهب
البداهة ومقتضيات الأمور . . .

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين .
خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ،
وبعضها إلى طوارئ الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على
اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

* * *

جاء الخطأ الأول في هذه السياسة من القائمين بالأمر
في حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيماً حقاً لأنه لا يفهم على
وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات
الدولة ، ونعني به نقص العطاء الذي كان مقدوراً للسيدة
عائشة في عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل في تقسيم
الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغاً عندها
وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة ،
ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه نفس والأموال تتدفق على
خزانة الدولة بالآلاف التي يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية
وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت
الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية
التي ينخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال .
ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله
في ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها
أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحسان إلى المعوزين ،
وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الأجلاء
وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن
ابن عوف — وهو مثل من أمثلة عدة — وافر الثراء على عهد
النبي عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له غير إلى
المدينة فيها سبعائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ،
فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها في بيت عائشة ، فما نجا به
من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدا أن العير بأحمالها وأحلاسها
وأقتابها في سبيل الله .

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب
الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً
عادلاً من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح
إليها النفس بتعليل مقبول

وشاع النقد والسخط من ولاية عثمان وحواشيه ، وكثر القيل
والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والحطام
ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة

أخى عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبي وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين

وكان الوليد متهماً بالخمرة ، وشاع في المدينة أنه أم الناس يوماً في صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت وقال : هل أزيدكم ؟ فإني أجد في نفسي نشاطاً ؟

ولم يكن عجباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره . فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً : أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقبل إنها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ . . . وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه »

لم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف

السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما شكوا الناس من وإلى عثمان - في مصر - عبد الله بن أبي سرح - وأتهموه بقتل رجل ممن شكوه إلى الخليفة فزعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة على الخليفة في إنصافهم ، وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبي بكر - أخاها - ليخلف عبد الله بن أبي سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . وقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم جليته حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت في طريقها بغلام يحمل كتاباً في أنبوبة من رصاص وفيه أنه « إذا أتاك

محمد بن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه
وقر على عملك حتى يأتيتك رأيي في ذلك إن شاء الله .

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر في
نفوس الصحابة وفي نفس السيدة عائشة وفي نفوس الوفود
المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ في طريق
غير مأمون .

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال
في عهد عثمان هو الذي تحول بالسيدة عائشة عن موقفها
الأول من حكومة أبي بكر وعمر إلى موقف الاشتراك في
السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولادة
عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذي جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهي
مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون
بالشكوى ويخافون عقباها .

فلولا الحمق الذي اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت
السيدة عائشة في مكانها العليا من الأمة الإسلامية وهي
تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم
وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلودوا بيئتها

ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستفادوا من
لياذهم بذلك البيت وفزعهم إلى ذلك الجوار

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة
أخيها وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل
الخليفة لولاية الحكم فيها

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة
التي يتورع عنها مثله في بره وتقواه . فإن الرجل الذي تورع
عن إهراق قطرة دم في سبيل الدفاع عن حياته والخطر محقق
به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ،
ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عن
يختارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

ولكن ما الذي أصاب الجاني المدبر للدسيسة ؟ ولم نجا
من العقوبة ؟ ولم لم يكشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية
وإن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنقذوه ؟ وماذا لو أن
الغلام الذي كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم
يعترضه الشاكون في الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذاً في محمد بن
أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة
عائشة لغير ضرورة محتومة ولا حكمة مفهومة ، وانتهت بالتأمر
على قتل أخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت في خلال ذلك

مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكين وغير الحاكين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وأن تنادى على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضي حيث مضت تلك الحاشية في جنتها وغلوائها .

قل إنها تربصت به حتى أقبل ينخطب الناس فدلّت قميص النبي ونادت : « يامعشر المسلمين ! هذا جلياب رسول الله لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته » .

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يرجى من الخير في شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير .

فلما حوَّصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره — وهي زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين — فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها إداوة ماء تخفيها . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل : وكانت أم حبيبة أموية من آل أبي سفيان ، فاجترأ الثوار عليها وقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها

وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهي على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبته أناها محمداً فأنى وتخلف بالمدينة .

عند ذلك لحاً مروان بن الحكم - وهو رأس البلاء - إلى جوار السيدة عائشة التي كان يغري عثمان بها لاحتواء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ! لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل . . . فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجدر من يمنعني ؟ لا والله ولا أعبر ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال في ذلك المأزق الميثوس منه فذهب إلى السيدة عائشة يستبقها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازي وأنا خارجة للحج . . . قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ! فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول : « لعلك ترى أننى فى شك من صاحبك ؟ أما والله لو ددت أنى أطيق حمله فأطرحه فى البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها أن بعضهم

سمعتها تقول : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك في كثير من نصوص الأحاديث التي نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بنى أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه في جوف حمار ميت ثم شروه . وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر وأشهدوا على مثله السفلة والبصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة - في ذلك العيد - وهي توصي الرسول أن يقول لها : هكذا كان شئ أخيك ! فما أكلت السيدة عائشة بعدها شويماً قط وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع الناس بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاية الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الأمويون من جرائرهم وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بالسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل

تمتريج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق وخلق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب علي : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة علي بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة علي من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة في هجمة قاتليه . فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير .

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار . أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة علي من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتهم ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوى في جيرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة

للمراجعة يوم دعاها الدعاء بعد تفانم الفتنة إلى السعى بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذى يغنى عن كل جواب ، فما من أحد يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة فى رأى أو توافقهما فيه ، وإنما الملام الذى لا محيص عنه أن يتجاوزا النداء برأيها إلى الخروج بها فى حومة قتال ، وهما لم يخرججا إليها بالمحارم والأزواج . كانت فى طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موقداً من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينهم وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه »

قال ابن عباس : يا أمه ! لو حدث - أى اعتزال عثمان - ما فرع الناس إلا إلى صاحبنا . . . قالت : إليها عنك . لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

وألفت نفسها في مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان : فعن لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت في الطريق ببيعة على فقالت فيما رواه عبيد بن أبي سلمة وهو من خؤولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردوني ! ردوني ! وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب بدم عثمان . . . فقال لها عبيد ابن أبي سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت . ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول » .

وما لبث في مكة قليلا حتى تجمع فيها كل ناظم على علي بن أبي طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاء الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد ، ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح إلى الخلافة يائس من الأنصار في المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدح في الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع .

كذلك لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج

إلى البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت في الطريق أن صدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتياهم في إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الحوآب فنبحتهم كلابه ، وسألوا أى ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوآب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعري أيتكن تنبجها كلاب الحوآب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهي تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوآب طروقاً . ردوني . ردوني . وأقامت يوم وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلاً من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم على بن أبي طالب . فأذنت لهم في المسير بعد امتناع شديد .

* * *

ونعتقد أن وقفها عند ماء الحوآب لم تكن آخرة التردد من جانبها في أمر القتال . فإننا في الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشعبة خبراً واحداً ينم على عزيمة قتال مبيتة لغرض

مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبي الأسود اللؤلؤي حين أشخصه إليها عامل على بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سأله : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟ وكان أبو الأسود رجلاً صعب المراس في نصرة عليّ فأجابها . والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا هن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمس رحماً فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تنزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان بن حنيف وإلى علي عليها . فتحاجزوا عن الحزب غير مرة في المربد وفي دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهائياً كاملاً من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحي من الجيشين . ثم أنفذ علي بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : أي أمه ! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني . الإصلاح بين الناس . قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما . فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ! قال . فأخبراني

ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرنا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتهم والذين اعتزلوكم فأديلوهم عليكم فالذى حذرتهم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعه من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء . . . فسأله عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواءه التسكين . . . فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة ودرك بئار ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المال . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسن ، فارجع . فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح الأمر . ثم أقر على وساطة رسوله وأشرف القوم على الصلح لولا أن حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماعها الذى خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن

التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الحصان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين تناصح الإخوان . . . نادى على خصمه الزبير يوماً : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان^(١) ؟ وهذا والله العار . . . قال على : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبى طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألا أقاتله . قال : كفر عن يمينك وقاتله .

وبينما هم في تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل لعب ابن سور إلى عائشة فقال لها : أدركى . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأذراع . وتعالى الضجة من هنا وهناك فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ

(١) البطان حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير

كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الحمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على علي بن أبي طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة علي إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول .

إنما هي حملة تهويل وسعى إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ، ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم إن فهم مأساة الحمل هي وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة

من ورأها عند الهجوم عليها فنعرف النية التي جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهي كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة في هذا السياق .

والذى يبدو لنا من تلك الحوادث التي لخصناها فيما تقدم أن مأساة الحمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التي طبعت عليها ، قدحتمها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة على في بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضي تمهيدا الذى رسم لها الوجهة واندفع بها عن هذه الحطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعليا لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هى غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

فطلحة من بنى عمومته ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذى اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله .

وعلى أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب رأى الذى لا ينسى في حديث الإفك وهو نصيحته للنبي بتطليقها .

ومن الحق أن تقول إن الشعور الذى تكنه السيدة عائشة
على من جراء هذه النصيحة شعور طبيعى لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضى الله عنه قد أخطأه التوفيق فى
تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة
لغظ بها المنافقون وطلاب الوقعة بين النبي وأصحابه . ولن يفهم
الناس من تطليقها إلا أن النبي قد أذنبها وأنف من معاشرتها ،
ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة
لا تمحى فى زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة
وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذى
أفكوا به مطعناً فى صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن
الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذى قضى
به الدين فى هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة فى
القدر والثقة . فما نحسب علياً قد سها عن هذا كله وهو
ينصح إلى النبي بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة
النبي وبيته ، واستكباره فى هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم
يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذى تقابل به النساء نصيحة
كتلك النصيحة . فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم ها هى ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء
الصحافة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ،

ومن هؤلاء الصحابة على وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهمضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى .

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذي شهدته عائشة قديماً في بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتي عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأى بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . وليس لعل سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما أسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود في طبائع الناس . على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة

من وقعة الحمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذى لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه فى نظر العقل ولا فى نظر التاريخ .

فعلى قد أخطأه التوفيق فى نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الحمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتنى مت قبل يوم الحمل ، وقالت مرة : ليت كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الحمل . وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها .

وعلىنا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق على رضى الله عنه ، فلم تهمة بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوم القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلىنا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة : حدة فى الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة

بالعداء لعلی ، وسعى حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضى إلى قتال . وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه .

وهو حادث لا بد له من عبرة .
وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل .

حقوق المرأة

فى حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة فى عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة فى جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل فى واجباته العامة هى خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة — ولا سيما السياسة فى عصور الاضطراب — هى المجال الذى يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه . وقد